المناقشات

حفريات ابستيمولوجية[1] لنظرية الحتمية القيمية في الإعلام للبروفيسور عبد الرحمن عزي

د. بشير كردوسي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة

لقد كثر الكلام اليوم عن منهجيات الفهم النسبي للقراءة، وهذا نتيجة التسارع الإنتاجي المعرفي الذي تعج به الساحات الأكاديمية والتداخل العلمي (الإنساني – التجريبي).كما أن الكتابة في حد ذاتها كما يقول:(... غوث (Goethe)، ضرب من الصلاة، أو لا هي صلاة، ولا هي كفر، ولا هي إيمان، ولا هي كمال، ولا هي عدم، ولا هي أيضا وجود في الوجود، ربما تأخذ هذه الأطراف مجتمعة فتتراكب من شبكة من العناصر المتناقضة، والمكونات المتباعدة ... وكيانها قائم في لغتها، وحقيقتها أولا وأخيرا، كامنة فيها، فكونها

[1] – الابستيمولوجيا: هي الدرس النقدي لمبادىء مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها، الرامية إلى تحديد أصلها المنطقي ومداها الموضوعي . ولا نعني بها نظرية المعرفة المقابلة عند الفرنسيين . ينظر : إلى موسوعة لالاند الفرنسية ص 357

كتابة، فهي الحقيقة، لكن في دائرة ما يمنحه معنى الكتابة، ما تجود به على مراودها...)[2].

أردنا من خلال هذا المنطلق، أن نقعد لما سيكون لاحقا، حول ما نكتبه وما أنجزه البروفيسور عزي عبد الرحمن لأن الكتابة في نظرنا قد لا تتعدى النسبية، وفهوماتها قد تختلف من قارىء لآخر .

البرنامج الفلسفي للنظرية :

لقدحمل الأستاذ عزي عبد الرحمن مبضع تحليله الفلسفي والذي نعده كذلك، في مواجهة ما كان يسود الحياة الاتصالية من يقينيات مطلقة، ومسلمات نظرية انطلاقا من قبليات كان لها الدور الأساس في تكون ونشأة هذه النظرية (الحتمية القيمية في الإعلام) .وبدون معرفة هذه القبليات[3] لا يتمكن الباحث في نظرنا، من الغوص ومعرفة الجوهر الماورائي للنظرية. إذ، أننا لا نكتفي بقراءة ما أنجز، كنتاج معرفي اجتهادي فحسب، بل أوجبت القراءة فهم هذا السبيل المعرفي لصاحبه . وبذلك نكون قد حققنا هدفين معا، من ناحية، نكون قد حفرنا عن القبليات التي ولدت هذه النظرية، ومن جهة أخرى نحدد أصلها المنطقي ومداها الموضوعي من زاوية ابستيمولوجية منهجية، وهذه القضية التي أصبحت تلقى اهتماما بالغا في الفكر المعاصر .

قبليات عزي عبد الرحمن :

النشأة الأولى: لا تنفصل سيرة البروفيسور عزي عن فكره، ولا تنفك فلسفته الاتصالية عن نشأته الأولى في البيئة الصغرى التي كان لها النبع التصوري اللاشعوري المستقبلي.فقد ذكر، أنه فطم في بيئة دينية مفعمة بالتعاليم

---

[2] – د. عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، دار هومة الجزائر، ط 2005، ص: 7

[3] – نعني بالقبليات، المؤثرات البيئية والتاريخية والنفسية والفكرية التي تلازم الباحث منذ النشأة حتى مرحلة إعداد البحث.

الدينية وحفظ القرآن. وهذه سيكون لها الدور المحرك المستقبلي في بصمات فكره.كما أن المنطقة التي تربى فيها وترعرع عرفت في التاريخ بمميزات قل أن نجد لها مثيل في تراب الجزائر، عرفت بالثورية، وعدم قَبول القوالب الجاهزة وترسخ كروموزمات الحرية في مواطنيها.

السفر إلى أمريكا للتعلم: إن هذا السفر قد أحدث في شخصية عبد الرحمن عزي صدمة استفاقية للنهل من المنابع الغربية من مختلف مدارسها وخاصة الاجتماعية التي تنبع من منابع الفكر الفلسفي الغربي الذي بنى جوهر التعاملات الاتصالية من التركيز على الإنسانوية الغربية ومركزيته. هذا النهل المعرفي الذي سيكون له الوقع الابستيمولوجي في تكون النظرية عند عبد الرحمن عزي. إذ يقول: (والواقع أن عودتي المؤقتة إلى الجزائر والمحيط الثقافي الذي كان يكون أزمتها الفكرية والهويتية (من الهوية) جعلني أستقل تدريجيا عن البنية النظرية الاجتماعية-الغربية، ولكن أدواتها ظلت حاضرة في مقاربتي لهذا المحيط المستجد رغما عني، ولقد مكنتني تلك الأدوات من أن أنظر إلى الذات والثقافة من زاوية خارجية، وكأنني أكتشف هذه الذات والثقافة من جديد، فكان ذلك حافزا أساسيا في النبش في التراث، فكتبت عن النظرية الاجتماعية الغربية الحديثة وابن خلدون، كما استوقفتني إسهامات ملك بن نبي في دراسة " مشكلة الحضارة" وإبراز الترابط البنيوي بين (الإنسان والتراب والزمان)، فأضفت في دراسة أخرى، عامل الإعلام في نظريته وبينت مفهوم (الأهلية القيمية) في دراسة مجتمع عصر المعلومات)[4].

[4] - د. عبد الرحمن عزي، دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز، سلسلة كتب المستقبل العربي عدد 28، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 10-11.

اتضح مما تقدم أن عبد الرحمن عزي قد نهل مناهل مميزة من التراث المعرفي الغربي الذي نبتت على تربته جذور فكره[5] .

التراث المعرفي الإسلامي: فبالرغم من الاشتغال الكبير والموسع لمختلف المدارس الغربية الفكرية والاجتماعية، فإن عبد الرحمن عزي لم يتخل عن المنابع التراثية التي أعاد قراءتها من جديد بأدوات جديدة مستلهمة من الأدوات الغربية، حيث يقول : (لقد اشتغلت بهم التراث إلى حين، ولم يكن هذا الانشغال معرفيا بل منهجيا، وأعني بذلك أنني لم أكن أهتم بالمسائل والإشكالات التي تعامل معها العلماء والباحثون المسلمون الأوائل، كابن خلدون وابن طفيل، وابن القيم ومالك بن نبي،....، وإنما بمقاربتهم، أي منهجيتهم في دراسة الظواهر، وقد بدت لي مناهجهم متطورة ولكنها ناقصة في التفاصيل، وذلك ما استكملته بالمناهج الغربية المعاصرة التي هي أكثر تطورا ليس في المقدمات النظرية ولكن في أدوات التحليل. وبتعبير آخر فإنك تجدني بين العقلية الشرقية والمنهجية الغربية)[6].فعلا، لقد أبدع هنا، عبد الرحمن عزي من جراء تفريقه بين المعرفة البشرية النسبية المتغيرة التي تتحكم فيها عوامل متنوعة والأدوات المحركة والمستنبطة لها.هذه النقطة بالذات، تعد في نظرنا من الركائز الجوهرية في فهم نظرية عبد الرحمن عزي.

المفاتيح المعرفية للنظرية :

إن الذي أرتأيناه سابقا كان ضروريا لمعرفة مفاتيح نظرية الحتمية القيمية في الإعلام. وذلك عبر هذه المقاربة النهائية التالية:

---

[5] -أنظر : أ.د.نصير بوعلي : قراءات في نظرية الحتمية القيمية في الإعلام ص 19، كما ينظر إلى : نفس الصفحة فقد أفاض صاحب الدراسة في هذا المجال .

[6] - مأخوذ من : www. Arabmediastudies.net

1-الخصائص الفردية :

فالفعالية الشخصية للكاتب التي أقترنت بالشعور بالذاتية والهوياتية كما سماها، وهذا دفع بالبحث عن البدائل و إستقراء الساحة الإتصالية العالمية التي بنيت كما مر بنا على إيديولوجيات لا تخدم الشعوب النامية التي ينتمي لها صاحب النظرية بل قد توهم الشعوب بأغاليط نفخ الذات أو أغاليط الدونية.

هذه الخلفيات صاغت النظرية في تصنيف نسقي حدد مجالات التفكير و التوليد و التفسير وفق الواقع والتاريخ الحضاري-الديني.

2-المنظومات العلمية :

غرف عبد الرحمان عزي كما أشرنا سابقا من عدة منابع وأصول أوسعت الجهات الإدراكية للفعل الإتصالي عنده. بدءا من النشأة، إضافة إلى الإغتراف الأكبر من المنجزات المعرفية الغربية وخاصة:

-المناهج الحديثة ،كالبنيوية (structuralisme) ، والظاهراتية أو الظواهرية (phemonology) ، مما أعطاه قدرة تفسيرية عالية وكان أول تركيزه على الجانب الإجتماعي لأنه يمثل المحك الرئيس للفاعلية الإتصالية .

لكن ما أراد تطبيقه عبد الرحمان عزي وجد عقبة بقد ما أتاح من فرص ، تمثل في التباين في المنظومات التفكيرية بين الشرق و الغرب. فهذا، جعله يستقل تدريجيا عن البتية النظرية الإجتماعية الغربية ولكن ضعف الساحة الشرقية جعله حبيس الأدوات المنهجية الغربية .

نتوصل عبر هذا التحليل المعرفي للمفاتيح المعرفية ومظاهرها إلى أن القارئ لعبد الر حمان عزي لا يمكنه الولوج لنظريته أو فكره إلا عبر هذه المفاتيح المعرفية والقبليات المكونة لها، إلا أننا نرى أن هناك بعض الإحترازات وهذه لا تنقص من القيمة الإجتهادية والمعرفية الأكاديمية العالية للنظرية .

-مسألة التوظيف للدين ، هل كجوهر أم مفهومات ؟

-هل الحتمية القيمية في الإعلام هي مقابل سلب الحرية والتي تعني عند الكثير من الفلاسفة الجبلة و اللاخروج .

نلاحظ بعد ما حاولنا استنطاق ما بدأنا به وعنوناه أن نظرية عبد الرحمن عزي لا يمكن الاهتمام بها فقط من طرف الاتصاليين أو الإعلاميين؛ لأن جوهرها فلسفي – اجتماعي ، ولا يمكن استيعابها بدون هذه القبليات الشخصية والسياقية...